عكس الاتجاه

عتبة بن غزوان

رضي الله عنه

ازهد فيما يطمع فيه الناس .. تعل عليهم

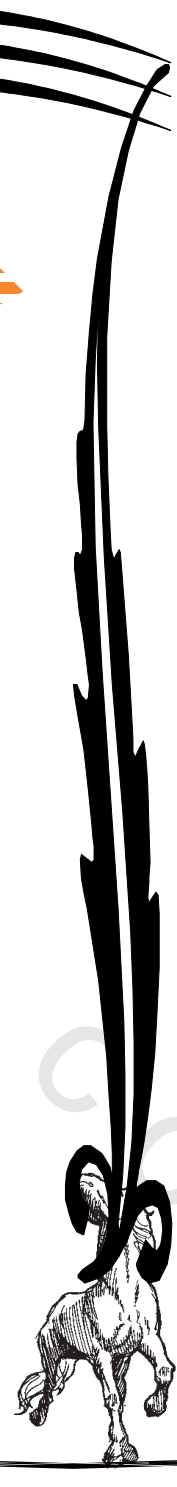

obeikandl.com

« لا أستطيع يا جعفر.. لا أستطيع أن أمكث هنا أكثر من ذلك ».

هتف بها في ضيق عتبة بن غزوان لأمير المسلمين في الحبشة جعفر بن أبي طالب والذي لاحقه محاولا إقناعه بالبقاء قائلا:

– يا عتبة.. الظروف في مكة في غاية الصعوبة، تعذيب واضطهاد ومؤامرات، الدعوة نفسها تكاد تكون متوقفة.. نحن هنا في أمان واستقرار وحماية النجاشي، بما يمكننا من حرية العبادة، وحتى حرية الدعوة.

قال عتبة وهو يهز رأسه مقرا ما يقوله جعفر:

– نعم يا جعفر، اعلم أن كل ما تقوله صحيح، لكن الأيام السابقة هنا جعلتني أوقن أنني لا أستطيع الابتعاد عن رسول الله ﷺ..أنا أفضل أن أكون بجانبه وسط الاضطهاد والتعذيب والمؤامرات، على أن أكون بعيدا عنه هنا في أمان النجاشي.

ثم تابع مستعطفا جعفر:

– أرجوك يا جعفر..أرجوك، قدر موقفي واسمح لي بالعودة إلى مكة.

ولم يجد جعفر بدا من أن يسمح لعتبة بالعودة إلى مكة حيث رسول الله ﷺ.

وحزم عتبة أمتعته وهو يسابق الريح، ويطوي البر والبحر ليصل إلى مكة في أقصر وقت..

ودخل عتبة مكة وهو يملأ صدره من هوائها، وعينيه من جدرانها وبيوتها، ونفسه تتوق شوقا إلى حبيبه ﷺ.

كان التعذيب في صحراء مكة قد اشتد على المسلمين، وكانت الحرب على الرسول ﷺ والدعوة قد وصلت إلى مراحل أكبر وأقوى، وكانت منافذ الدعوة تضيق وتضيق، وكان الناس في خوف وهلع من اتباع الدين الجديد.

لقد كانت الدعوة في أزمة حقيقية..

ورغم ذلك.. ورغم كل ما رآه عتبة بعينيه، كان يستعذب الأنس بجوار رسول الله ﷺ ليكمل معه الطريق، ويحمل معه أمانة الرسالة، بكل ما تحمله من مشقة وآلام وعذابات في سبيل الله.

ولقد تعلم عتبة في تلك السنوات الكثير والكثير..

الصبر والتقشف، والزهد والصبر على الشدائد، والثبات على المبدأ مهما كانت الصعوبات ومهما تكن الظروف.

وهو قبل ذلك.. فارس مغوار شجاع، لديه من خبرة الحرب الكثير والكثير.

كل هذا دفع عمر بن الخطاب إلى أن يرسله على رأس جيش ليخلص الإسلام من خطر طالما عانى منه المسلمون، من إحدى نقاط الإمبراطورية الفارسية تسمى « الأبلة ».

وكانت مهمة عتبة بن غزوان، هي فتح مدينة «الأبلة»، وتخليص المسلمين من شرورها.. إلى الأبد.

« انطلق أنت ومن معك، حتى تأتوا أقصى بلاد العرب، وأدنى بلاد العجم..

وسر على بركة الله ويمنه.. وادع إلى الله من أجابك.. ومن أبى، فالجزية.. وإلا فالسيف في غير هوادة.. كابد العدو، واتق الله ربك».

كانت هذه هي آخر التعليمات التي وجهها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لعتبة بن غزوان، قبل أن ينطلق بجيشه إلى بلاد الفرس.

لم يكن جيش عتبة كبيرا، بالمقارنة بجيش الفرس الذي تسلح كالعادة بأحدث الأسلحة والعتاد.

لكن هذه الحسابات لم تكن لتهم المسلمين كثيرا..

فدائما كان إيمان المسلمين وصدقهم وحرصهم على الشهادة في سبيل الله يضاعف عددهم وقوتهم أضعافا مضاعفة، ترهب العدوأيا كان عدده، وأيا كانت عدته وعتاده.

وهذا ما حدث بالفعل..

فلقد وقف عتبة بن غزوان وسط جنوده في المعركة، وهو ينادي فيهم بكل ما يملك من صدق وحماس، ليوقظ إيمانهم ويشحذ هممهم وهو يقول:

- الله أكبر..صدق وعده.

كان الهتاف ينطق بالأمل والتفاؤل والعزم واليقين بنصر الله دون شك..

ولقد أتى النصر بالفعل..

فما هي إلا جولات حتى استسلمت بعدها مدينة «الأبلة»، ودخلها المسلمون ليطهروها من نجس الفرس، ويحرروا أهلها من طغيان واستبداد استمر طويلا.

وبدأ عتبة بن غزوان مرحلة جديدة في «الأبلة».

مرحلة البناء والتعمير..

وبعد أن غير اسم «الأبلة» إلى «البصرة»، أخذ المسلمون يشيدون البنايات ويصلحون في

الأرض، باسم الله ونور الإسلام.

وظل عتبة أميرا على البصرة، إلى أن شعر أنه قد أتم مهمته بإخلاص وإتقان، إلا أنه طوال هذه الفترة، لم يستطع أن يتخلص من أمر كان يؤرقه باستمرار.

إنها الإمارة..

مسئولية كبيرة، يخشى الحساب عليها أمام الله، يخشى مناوراتها ومغامراتها التي نزل فيها الكثير من الأقدام، ويخسر فيها الكثير من الناس مبادئهم وتقواهم وإيمانهم وآخرتهم.

لم يرد عتبة لنفسه أن يدخل في مغامرة من هذا النوع.

كان فارسا مقداما في صراع الميدان العسكري، يدخله متمنيا لنفسه الشهادة ولقاء الله.

إلا أنه كان أخشى ما يخشاه، صراع الدنيا.. فهو يرى أنه لا طاقة له به.

من أجل ذلك.. وبمجرد أن أنهى مهمته في البصرة، عاد إلى المدينة هاربا من الإمارة.

وبمجرد عودته، وبمجرد أن فاتح عمر بن الخطاب في رغبته في ترك الحكم في البصرة، انزعج عمر بشدة، ورفض طلب عتبة بكل حزم، وأصر على عودته للبصرة ليكمل ما بدأه.

وأمام شدة عمر وإصراره المعروفين، رضخ عتبة لأمره وعاد من جديد، يعلم الناس دينهم وينشر تعاليم الإسلام، فيعقد الندوات والدروس وينشر الثقافة والعلم في ربوع المدينة، ويقيم العدل بين الناس، ويضرب في حكمه لهم أروع المثل في الزهد والبساطة.

كانت حضارة فارس حضارة مادية شهوانية، تقدس المادة وتعبد الشهوة، حضارة دنيوية لا تعرف طريقا للسماء ولا تعي مهمة الأرض.

ومن هنا.. رأى عتبة أن تتركز دعوته على محاربة الترف والإسراف والهرع نحو الشهوات، وأن يحيي قيم الزهد والبساطة، ويحل القيم الروحية مكان قيمة المادة.

تعلم عتبة هذا من رحلته مع الرسول ﷺ في مكة والمدينة، وهو ما دفعه يوما أن يخطب في الناس قائلا:

« والله لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ سابع سبعة، وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا..

ولقد رزقت يوما بردة، فشققتها نصفين، أعطيت نصفها سعد بن مالك، ولبست نصفها الآخر».

كان عتبة يحدث نفسه قبل أن يحدث الناس، ويحذر نفسه من الدنيا وزينتها أضعاف ما يحذر

غيره منها.

ولقد وصل حرصه في دعوة الناس إلى الزهد إلى الحد الذي لم يتحمل الناس منه ذلك، فأثار ذلك انتقادهم له، وحاولوا أن يقنعوه بتغيير ما يدعو إليه الناس، وأن يخفف عنهم هذا الضغط المتواصل.

إلا أن عتبة كان مصرا على منهجه إلى آخر لحظة، فكان يجيبهم قائلا:

- إني أعوذ بالله أن أكون في دنياكم عظيما، وعند الله صغيرا.

كانت تلك السياسة سببا في ازدياد ضيق الناس من عتبة، في الوقت الذي لم يكن لعتبة أي استعداد لتغيير طريقته، وأمام هذا الانتقاد الشعبي، اقتنع عتبة تماما بعدم الاستمرار في الإمارة، فقرر ترك الإمارة وهو ينظر إلى الناس قائلا لهم في شفقة:

- غدا ترون الأمراء من بعدي.

وعندما جاء موسم الحج، استخلف عتبة أحد إخوانه على البصرة، وبعد أدائه فريضة الحج، سار إلى المدينة عاقدا العزم هذه المرة على ترك الإمارة..

وبكل قوة..

إلا أنه وللمرة الثانية، واجه نفس الرفض بشدة من عمر، حتى إنه وجه إلى عتبة اتهاما هذه المرة بتركه يتحمل المسئولية وحده، فقال في غضب:

- تضعون أماناتكم فوق عنقي، ثم تتركوني وحدي؟ لا والله لا أعفيكم أبدا.

ولم يدر عتبة ماذا يفعل بعد قول عمر..

عمر مصر على رأيه..

وعتبة.. طبيعته وسماته الشخصية، لا يبدو أنها تنسجم مع دنيا السياسة.

وإزاء هذا المأزق، لم يجد عتبة إلا حلا وحيدا..

هوأن يتوجه إلى الله بالدعاء.

لم يجد عتبة حلا، إلا أن يدعوالله ألا يرده إلى البصرة..

أبدا..

ولقد استجاب الله الدعاء المخلص.. من العبد المخلص..

فبينما هو في طريقه للبصرة، اختاره الله إلى جواره.

ورفرفت روحه فرحة سعيدة في السماء، بعد أن ارتاحت من مشقة الحكم وتبعاته.

وطارت إلى أرض ليس فيها تعب ولا نصب.

أرض.. لن يحتاج فيها عتبة إلى أن يتحدث عن الزهد والتقشف..

إلى الأبد.

* * *

obeikandl.com

١- الإسلام جعل راحة المسلم في اجتهاده، وجعل سعادته في مشقة العبادة والسعي لإرضاء الله (عتبة بن غزوان يطلب العودة إلى مكة رغم ما بها من اضطهاد).

من القوانين التى خلق الله عليها النفس الإنسانية، أنه جعل راحتها في مشقتها، واجتهادها في السعى الدائم لإرضاء الله، مهما كلفها ذلك من مشقة في البدن أو أذى في النفس أو تضحية بالمال، فإن هذه المشقة وتلك التضحية، بالرغبة الصادقة والنية الخالصة لإرضاء الله، تجعلها مصدرا لسعادة لا تفوقها سعادة..

وهذا ما يفسر سعادة الصحابة ورضاهم وتمسكهم بدينهم، رغم كل ما لاقوه من تعذيب واضطهاد، وكل ما عانوه من ضيق في العيش، وهذا ما يفسر أيضا لماذا لا يلجأ الشخص الذي يصيبه القلق والتوتر إلى ماله إن كان غنيا، وإنما يلجأ إلى الصلاة وكتاب الله وتحسين علاقته بخالقه، رغم ما في الصلاة من جهد نسبى، ولكن الراحة النفسية التى يشعر بها في الصلاة تجعلنا ندرك أن بذل الجهد في سبيل الله هوالمصدر الوحيد للطمأنينة والهدوء، مهما عانى الإنسان وقاسى في حياته.. ومهما ملك من أمر دنياه.

٢- حسن التعامل مع النفوس، وبث الأمل والثقة فيها وتنمية قدراتها، والقدرة على التخطيط السليم، يضاعف القوة وإن قل العدد (عتبة بن غزوان يبعث روح الأمل في الجنود رغم قلة العدد نسبة إلى الفرس).

من بداية صراع المسلمين مع المشركين وإلى نهايته، يثبت الإسلام في كل جولاته أن مسألة القوة ترتبط بقوة الإيمان والثقة في الله وفي النفس، والقدرة على التخطيط السليم، والصبر والثبات وإحياء الأمل في النفوس .

إن الإسلام يتعامل مع القدرات النفسية ويقدرها، ويجيد توظيفها واستثمارها ليتفوق بذلك على الأعداد الكبيرة غير المدربة أو ضعيفة القدرة (فيما يعرف الآن بالتنمية البشرية)، وهو مبدأ إداري يلتزم به الناجحون، فليس المهم هو كثرة العدد، وإنما المهم هو كفاءة العدد الموجود في العمل أيا كان ، من أجل ذلك حرص الإسلام على انتقاء الكفاءات وحسن توظيفها وتنمية مهاراتها، فتفوق وساد في عصور ازدهار الدولة الإسلامية، وهو نفس الأسلوب الذي ينبغي اتباعه في أي عمل يراد له النجاح، سواء كان في مؤسسة أو دولة أو أي عمل آخر.

٣- الإسلام دين بناء.. لا دين هدم (عتبة يقوم بالتعمير بعد الانتصار في الأبلة).

من الخطأ أن يتجه تفكير الملتزمين إلى الهدم أكثر من البناء، فهذا التفكير ورط المنطقة العربية في أعمال عنيفة أثارت العداء للإسلام بصورة سافرة وقوية، إن الإسلام ليس دينا متعطشا للقتال والحروب، وإذا لجأ إلى الحرب لا يلجأ إليها إلا مضطرا، أما مهمة الإسلام الأساسية، فهي التربية

ونشر الخير بكل معانيه وقيمه الإنسانية الجميلة، والسعي دوما للبناء والإصلاح..

إن محاربة الخطأ لابد أن تكون بحكمة وذكاء، وعليه أن يتنوع بين إنكاره، وبين نشر الأمل في النفوس بالعمل البناء المجدي النافع، الذي يعكس قدرة الإسلام على البناء والتفوق والعمل، وحشد همم الناس على الخير.

إن استنفار الطاقات وبث الحماس في النفوس نحوالعمل النافع البناء، يعتبر أحد الوسائل القوية للقضاء على الخطأ، وتغيير وجهة النفس بقوة إلى طريق الهداية.

٤- عندما يعلم الله بصدق احتياجك إليه، سيستجيب لدعائك.. ولن يخيب ظنك (الله يستجيب لدعاء عتبة في عدم تولي الإمارة) .

التضرع والتذلل والدعاء بكل مشاعرك، أحد الأسباب القوية لاستجابة الدعاء، وتذكر مرة واحدة دعوت الله فيها بكل جوارحك، وستذكر أن الله لم يخيب ظنك فيها.

إن الدعاء أحد الأسلحة القوية في حياتنا، التى تعطينا الأمل في الحياة رغم كل ما نلاقيه فيها من صعوبات، وما يعترضنا فيها من عقبات، ولكنه يحتاج إلى صدق، ودليل أنك تتوجه بكل جوارحك إلى الله، مقتنعا أنه مالك السموات والأرض، القادر على كل شيء. . ساعتها ثق تماما أن الله سيقف بجانبك مهما كان طلبك.. ومهما تكن مشكلتك.

* * *